

بعلم: مصطفى لطفي المنفلوطى .. أفضل ما سمعتُ في باب المروءة والإحسان أنَّ امرأةً بائسةً وقفت ليلة عيد من الأعياد بحانوت تماثيل في باريس يطوقو الناس في تلك الليلة لابتياع اللعب لأطفالهم الصغار، بل لأنها كانت تنظر إلى عين ولديها الصغير الذي تركتو في منزلها ينتظر عودتها إلى بعلبة العيد، كما وعدتو، فأخذت تساوم صاحب الحانوت فيو ساعة، والرجل يغالي بو مغالاة شديدة، فساقتها الضرورة التي لا يقدّرها إلا من حمل بين جنبيه قبلًا كقلب الأم، ولا يشعر بمكانها، ثم رجعتُ أدراجها وقلبه يتحقق في آن واحد خفقتين مختلفتين: خفةُ الخوف من عاقبة فعلتها، ثم تركها وشأنها، وذبب إلى مخفر الشرطة فجاء منو بجنديين للقبض عليها، وصعدوا جميعاً إلى الغرفة التي تسكنها، ففاجأوا ويي جالسة بين يدي ولديها تنظر إلى فrho وابتهاج بتمثال نظرات الغبطة والسرور، وجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده، فصرخ الولد صرخةً عظمى، لا على التمثال الذي انتزع منه، بل على أمِّ المرتعدة بين يديه، فانتقض انتفاضةً شديدةً، وصعب عليه أن يترك بهذه الأسرة الصغرى ربة المسكينة حزينةً منكوبةً في اليوم الذي يفرج فيو الناس جميعاً، فإني لا أبيعُ ندا النوع من التماثيل، فشكّرت له فضلو ومرءاته، ولم يفارقهما حتى أسدى إليهما من النعم ما جعلَ عيبيماً أسعداً وأئناً مما كانوا يظننان. وأولادِم اللعب والتماثيل، ثم ناموا ليلاً لهم نوماً نادياً مطمئناً تتطاير فيو الأحلام الجميلة حول أسرتهم، يتلون في فراشهم أئنناً يتصدع لو القلب، ويذوب لو الصخر، حزنناً على أولادِم الواقفين بين أيديهم، يسألونهم بأسنتهم وأعينهم: ماذا أعدوا لهم في ندا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادِم، ولعب جميلة يزينون بها مناضدم؟ فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها. فهل لأولئك السعداء أن يمدو إلى نؤلاء الأشقياء يد البرِّ والمعرفة، إنَّ رجلاً يؤمنُ بالله ورسله، ويحمل بين جنبيه قلباً يخفق بالرحمة والحنان ، في طريقه إلى معبده، أو منصرفه من زياراته، دامعة العين أن توارى وراء الأسوار والجدران خجلًا من أثوابها وصواحبها أن تقع أنظارهنَّ على بؤسها وفقرها، فلا يجد بدا من أن يدفع عن نفسو ذلك الألم بالحنقِ عليها، وعلى بؤسها ومتربتها، لأنَّه يعلم أنَّ جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدة من السعادة التي يشعر بها في أعماق قلبو، عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة في عينيها.